obeikandl.com

بغداد قبل ساعات من الهجوم الأمريكي

المدينة تعيش في جو خانق من توتر الأعصاب، الجميع تخنقهم عبرات الصمت والخوف من المجهول، أصبحت البيوت ضيقة كالدكاكين تحاصر الناس وتطبق على أنفاسهم، فأخذوا يلتمسون الراحة في البحث عن ما يهدأ من روعهم وتوترهم، ولكن الجميع يدركون أنهم في دوامة التيه، الكل يحسب مقدار الخسارة إن وقعت الحرب فعلاً.

الناس متزاحمون في طوابير لا يملكون من الشجاعة سوى أن يتهامسوا في ريبة ويتبادلون الخوف والقلق، ورغم تلك المعاناة لم يتوقفوا عن نقل الأكاذيب وبعضهم يتعاطون الأقراص المنومة ولا يعرفون للنوم طعماً..

ولكن هذا لا يعني عدم وجود ناس رابحون وسط هذا الزحام من الألم والمعاناة، فتلك الأزمة فتحت لهم آفاق الربح والمتاجرة بقوت الفقراء والمعدومين الذين أصبحوا لا يملكون في أرض الرخاء سوى الدعوات..

حتى أشجار المدينة أصبحت صامتة لا تتحرك..

الماء في دجلة والفرات تناقصت كثيراً حتى أوشكت على الجفاف..

الطيور هاجرت بعيداً.. وأصبح رنين الفزع يطرق أسماع أهالي بغداد.

الوجوه غطتها لمحات الحزن والتساؤل عما يجري وما سيحدث.. أخذ يشغل بال الناس أينما ذهبت، هناك سؤال واحد يقلق الجميع: هل ستندلع الحرب فعلاً؟

الشفاه احتجبت خلف بسمات باردة تتحرك حينما تشعر بالأمان، الحياة أصبحت باردة لا تدل على شيء سوى أن هناك أمراً ما سيحدث في خضم الساعات المقبلة، ورجال الشرطة وأجهزة الأمن منتشرون في كل مكان ولوائح الممنوعات كثيرة أولها الحديث عن الحرب، فلغة التحادث أصبحت تختلف عما كان يتداوله الناس من قبل،

ليتصدر كاظم الساهر وحفلاته التي ملأت أرجاء العالم بالاهتمام فضلاً عن تداول النكات الساخرة التي ازداد تجاذبها بين الناس.

فكثيراً ما كان رجال الأمن يعتقلون المواطنين لمجرد الكلام في أمور اقتصادية أو اجتماعية تتعلق بحياتهم اليومية، أو ما يشهده العالم من أحداث إلى جانب دور العراق الإقليمي في المنطقة، حيث يعد ذلك خرقاً أمنياً لسياسة الدولة وهذا ما يعتبره النظام تجاوزاً للخطوط الحمراء.

وفي نفس الوقت كان هذا النظام يمتعض بشدة من ظاهرة النكتة البغدادية الساخرة ولا تتردد المحاكم في إنزال أقصى العقوبات بحق كل من يروجها، لاعتقادهم أن تلك النكات الساخرة تتعرض لرموز الدولة دون النظر إلى أن اتساع ظاهرة صياغة النكتة وتداولها في المجتمع العراقي هي ظاهرة قديمة ولا يمكن إزالتها، حيث تتميز هذه النكتة بلطافتها عما هو متداول في الشرق الأوسط، كما تمتاز بالتغيير السريع من حيث اختيار شخوصها وأبطالها وطبيعتها حسب نوع الأزمات والمشاكل والمحن التي يواجهها المجتمع العراقي حتى أصبحت النكتة من سمات هذا البلد المعروف عنه تاريخياً ببلد الأزمات واعتبرت النكتة المتنفس الوحيد للكبت والآلام والمآسي ومحاولة لتناسي مشاق الحياة اليومية.

وللنكتة العراقية تاريخ طويل يرجع إلى أيام الدولة العباسية أو أقدم من ذلك، وكان العلماء والأدباء والكتّاب يتداولونها في أنواع الأدب الدارج حيث وردت على ألسنة أبي العتاهية والجاحظ وغيرهم.

كما أصبحت شخصيات هذا الأدب الضاحك مشهورين ومحبوبين لدى العراقيين وخاصة شخصية جحا البغدادي وشخصية بهلول.

وقد نظر علماء الاجتماع إلى ظاهرة انتشار النكتة على أنها ظاهرة تصيب المجتمعات الأكثر ترفاً والمنشغلة بالملذات، إلا أن العراقيين أثبتوا عكس ذلك الاستنتاج لأن نكاتهم تنبع من عمق المعاناة والآلام والمآسي التي يتعرضون لها على أيدي الأنظمة السياسية التي استلمت زمام السلطة في العراق.

مما يعني أن العراقيين قادرون على لملمة جراحهم والتكيف مع واقع الحال، إلا أن أهم ما يميز النكتة العراقية كونها مبطنة بالسياسة ومملوءة بالنقد الساخر للحكومة التي أذاقت هذا الشعب ويلات الفقر والمجاعة والحروب.

فكان التوجه نحو النكتة السبيل الأمثل لانتقاد الأنظمة ومهاجمة سلبياتها وانتقاد رجالاتها، على الرغم من القوانين الصارمة التي قد تُنال من تداولها، إلا أن الناس كانوا يروجونها بسرية وحذر شديدين. ولأول مرة أخذت نكات العراقيين تعبّر عن واقع مأساتهم وما يحدث في العراق، ولكنها تقال في الخفاء.

ورغم أن لغة التحادث أصبحت متنفساً للكثيرين إلا أنها أصبحت أكثر ابتذالاً لكثرة ما دخلها من النفاق والتصنع. والكذب أصبح حرفة والخوف أصبح أقوى من كل المشاعر الأخرى، حتى العاطفة باتت طريقة للوصول إلى ما تحتاجه النفس، ليس هناك مكان للحب فالحب هو الآخر بات ينظر له على أنه مضيعة للوقت ولا مكان له وسط هياج دقات طبول الحرب، الانتهازيون انتشروا في كل مكان كالذباب، اللصوص والقتلة أخذوا يستعدون في الشوارع، البراءة ماتت، الصدق انتحر، والحزن هو الرغيف اليومي الذي يتناوله الناس مع وجبة القلق.

المرض النفسي أصبح مزمناً لدى العراقيون إلى جانب الأمراض الأخرى التي كثرت في الآونة الأخيرة وكأن الله قد أنزل لعنته على هذا الشعب حيث بات محاصراً حتى بصحته.

كل من تصادفه في بغداد يشتكي من القرحة، القولون... الأملاح.. السكري.. الضغط.. الذبحة.. الأرق والقلق والكآبة.

لقد كان من المناسب أن يتحاشى الناس التكلم عن المواضيع الخطرة!!.

والشعب في كل لحظة يقترب من الموت ويعيش حالة من اليأس، فالجميع أمام خيارين: إما الموت على يد رجال الأمن، أو الموت أمام قوات المارينز الأمريكية المدججة بشتى أنواع أسلحة المتطورة.

وأخذ الناس يصطنعون الكلام والسلوك وحتى التهذيب، كل شيء في هذه البلاد

أصبح مزيفاً، وكان أملي الوحيد التخلص من هذا الأرق المزعج وترقب ما سيحصل في الساعات القادمة كما فعل الكثيرون غيري، وأخذت أصطنعُ مثلهم لا أتكلم بالكلمات المهذبة إلا عند الحاجة، ولا أتكلف بالأدب والاحترام إلا عند الحاجة، ولا أعبّر عما يجول في أعماقي من رفض للأشياء أو أدع تعابير القلق والخوف ترتسم على ملامح وجهي وإنما أدع ذلك المجهول الذي يسكن في داخلي أن يعبّر عن كل ما هو خطأ بتعبير ضعيف لا يلفت انتباه رجال الأمن.. يا لها من حرية!! نسيت أن أقول لكم.. بأن الحرية ممنوعة من أن تلفظ على الشفاه أو أن تكتب بالأقلام، بل هي مجرد كلمة واحدة تكتب في محاضر وتقارير السياسيين ورجال الدولة لتصبح تلك المحاضر ذات ديباجة منمقة تحمل بين طياتها كل ما هو مخالف لحقيقة المعاني السامية لتلك الكلمات التي نحن بأمس الحاجة لسماعها: كالأمن، الاستقرار، الرخاء، السلام، الوحدة، الديمقراطية....

بقي من الوقت ساعات على احتضار مدينة بغداد، بادرني قلق رهيب إزاء ما قد يحدث، وقلت: أي صراع دامي قد ينشب وإلى أي مدى من الممكن أن تلحقه الأحداث المرتقبة أذىً بالناس والممتلكات، وإلى أي مدى قد تخرب البلاد؟!.

أدركت بفطنتي من خلال ما انتزعتني الأحداث الماضية من التاريخ مما شهده العالم من أزمات وحروب وما مررنا به نحن العراقيون من تجارب مريرة، أننا سنشهد حرباً مدمرة وأياماً مفزعة، وأخذت خيالاتي تلقي بي فوق سحابات الغيوم الممطرة... وأيقنت تماماً بأن الحرب وشيكة وكل شيء فيها سيكون صعباً جداً.

لذا خرجتُ لأرى ما تحمله وجوه الناس، فأطلت النظر فيها وحاولت أن أسترق السمع فيما يتردد بينهم من مواضيع وحتى مجرد كلمات، وعرفت أنها مألوفة كما تحملها ذاكرتي، لا جديد... كلها هواجس مشحونة بالخوف والقلق والتوتر وعبرت بمخيلتي عما سيحدث، ثم أدرت بوجهي صوب المباني الجميلة في مدينتي فوجدتها هي الأخرى تستعد لأيام المواجهة وقد سدت المتاريس المصنوعة من أكياس الرمل منافذ أبوابها..

أيقنت أنها رغم كل استعداداتها ستصبح أمريكية، ثم نظرت إلى الشوارع مرة أخرى أتوجس فيها رؤية الحياة الطبيعية حتى ولو للمرة الأخيرة قبل أن تجيش بعربات الهمفي

والمدرعات والدبابات الأمريكية السريعة التي كنت أشاهدها في أفلام الحرب الهوليودية. أحسست بأن هناك مَنْ ينتظر لحظة دخول هذه القوات وهم طبقة مغلوبة تستجير بشكل مباشر بتلك القوات للتخلص من نظام الحكم في بغداد، كان الأهالي دائبون على العمل رغم معاناة الحرب الوشيكة، فهؤلاء هم الذين يشتغلون بأفقر المهن بل وحتى لا يجدون أحقر المهن، شعب مسكين حتى وفي أحلك الظروف يعيش على بساطته وطيبته، يحب الرقص والموسيقى والدبكات ولكنهم لا يعرفون بأنهم يحتضرون.

أخذت المدينة تستعد للمواجهة، والمتاريس في كل مكان... كان التنظيم العسكري في غاية الدقة والواجبات مقسمة بشكل جيد، الجيش الشعبي في الخنادق إلى جانبهم أفواج الفدائيين والوحدات العسكرية النظامية.. شيء جميل أن نرى هذا التنسيق المنظم ما بين هذه الوحدات والأفواج القتالية بأعداد هائلة من المقاتلين من شتى الصنوف.

أصبح الجو حاراً... ولا زالت السلطة تروج للنصر والتلفزيون يبث حكايات وقصص المقاومة والصمود وأغاني قاسم السلطان ورضا الخياط وغيرهم من المطربين... وأصبح لكل مواطن في بغداد حكاية... إلا أن الاحتضار أصبح بلا عزاء واسم الموت يتناقله الجميع وهو أمر لا بد منه، فالحرب مع أمريكا وحلفائها ليس أمراً سهلاً، خصوصاً بعد أن هدد الرئيس الأمريكي «جورج بوش» أن في حالة استخدام الحكومة العراقية للأسلحة غير التقليدية (البايلوجية والكيمياوية) فسوف يقوم الجيش الأمريكي بتوجيه ضربة نووية محدودة على بغداد... ذلك الأمر أرعب الناس وأثار في مخيلتهم ما قد تحدثه تلك الضربة من دمار وخراب، وكم ستخلف من أعداد القتلى والمشوهين، مثلما الخوف من أن تقوم الحكومة العراقية باستخدام الأسلحة البايلوجية والكيمياوية، وكان الكثيرون يتوقعون مثل هذه الخطوة نظراً لكون الحكومة قد جربت مثل هذه الأسلحة ضد أكراد العراق في عام 1987 و1988 وما أحدثتهُ من دمار وخراب وقتل وتشريد بحق المدنيين الأكراد خصوصاً في مدينة حلبجة. كل تلك الأمور قد ملأت حياة العراقيين بالرعب والفزع، وبالفعل فكل مواطن أصبح له حكاية، كنا

نتحدث عن السرقات العجيبة التي تحدث أثناء الليل في بغداد والتي شغلتنا مؤخراً بعد أن أطلقت الحكومة سراح دفعة من المجرمين العتاة من سجن أبو غريب، كنا نجلس ليلاً ونتحدث عن تلك السرقات ونستغرب من جرأة هؤلاء المجرمون الذين يسلبون ويقتلون ويغتصبون، علماً أن السلطة تفرض عقوبات مشددة على الجناة، وكنا نعتقد أن ما يتردد حول ما تقوم به عصابات الليل التي تهاجم المنازل مجرد أحاديث لا صحة لها، ولكنها كانت تحدث كل يوم في مدينة بغداد، وكانت تلك الأمور تقلق أهالي بغداد بعد أن انتشر المجرمون فيها بكثرة، إلا أن خطر الهجوم الأمريكي ومفاجآت المعركة والاستعداد لها كانت تشغل الناس أكثر، على الرغم من أن زمام الأمن لم يفلت من رجال الشرطة العراقية بعد ولم تداهم الفوضى والإهمال والإرهاب والجرائم المنظمة أزقة المدينة، إلا أني أدرك جيداً بأن الليلة ستكون انطلاقة المعركة على الرغم من أننا ما زلنا في أول النهار.

وكنت أتساءل: ماذا سيفعل كل هؤلاء اللصوص والقتلة الذين خرجوا من السجون المظلمة إذا ما حصل الهجوم الأمريكي على بغداد؟!!.

ماذا يفعلون طوال اليوم.. وكل يوم، وأين سيختبأون؟ وما هو دورهم خلال وبعد انتهاء المعركة؟!.

أجل كان ذلك يقلقني بالفعل.. وقد كان كل شيء في بغداد يحرق الأعصاب ويثير الريبة والتوتر، ازداد الأفاقون والمغامرون.. وازداد الوافدون وانتشر المنتفعون جرياً وراء الصفقات..

وأيقنتُ أن لا أحد يتحرك من أجل قضية عادلة لوجه الله... كل إنسان يتحرك لمنفعة خاصة، وشعرتُ مع اقتراب الليل بأني أختنق وأخذ القلق يؤنبني.. فقد أصبحنا جميعاً ضائعين في بلدنا ولا نعرف ما ينتظرنا!! الكل يسترق النظر إلى جمال بغداد وروعة أبنيتها وشوارعها ويتحسر.. ولكننا جميعاً نتفرج لا نملك أكثر من أن نتفرج.. كل شيء بيد من يملك السلطة، ولو أردت لرأيت ما هو أجمل عندما تميل ببصرك بعيداً لترى تلك القصور الجميلة التي بناها الرئيس، كل ذلك الثراء الذي يرهق الأعصاب، وأفكر ومن ثم أتحسر

أنا الآخر كغيري من المغلوبين على أمرهم وأردد: هل سيذهب كل هذا في الأيام القليلة القادمة؟!!

هل ستحترق بغداد؟.. دور السينما الجميلة التي كنا نرى فيها أفلام الحب والإثارة، كل تلك العمارات الرائعة... الكنائس، المساجد، الأسواق العامرة... أسفاً سيضيع كل شيء.

وكنت أنظر بين وقت وآخر لأجد نفسي بحاجة إلى زيادة مخزون المؤونة الغذائية التي تحتاجها عائلتي في خضم نار القصف... التي ستحرق البلاد، وأخذت ساعات الخوف والتوتر تزداد شيئاً فشيئاً وأخذ الناس يتنافسون لاقتناء المواد الغذائية.. أحياناً كنا نبحث عن أشياء كنا نجدها سابقاً من التفاهات... أما اليوم فكل شيء أصبح ضرورياً لكي نعيش ونبقى ونتحدى الموت مع ساعات المواجهة التي أخذت تقترب، الجميع يعد العدة تأهباً لأي طارىء كانت الأشجار تتماسك أغصانها وفروعها خوفاً، وكانت العصافير البريئة تزقزق يقابلها عواء الذئاب والضباع النابحة التي تبحث عن الجيف هنا وهناك.. الرياح تعصف وتعزف ألحاناً مرعبة، والسماء يسدها عواصف ترابية تنبئ بكوارث الموت المفاجىء، أي وصف لا يمكن له أن يشبه ما تمر به مدينتي الجميلة التي ستسقط قريباً بأيدي الغرباء.

لا يوجد وصف آخر يمكن أن يحيط بها مع كل رجفة قلب وسط هذا المسرح الوحشي.. الحياة أصبحت في حقيقتها كالغاب.. نعم هي شيء آخر غير حياة طرزان والسندباد إلا أنها غابة حقيقية مليئة بالمحترفين الذين يجيدون أساليب القتل ممن يسعون وراء المغامرات، أجل إنهم يرون الحرب فسحة ووجدوا أن أقصر طريق يسير بهم إلى مآربهم هو الخط العدواني لا الخط الإنساني.. المتصارعون أيقنوا أنهم أمام سبيل واحد هو المواجهة، أما الأحاديث التي تنشد السلام والمحبة هي مجرد ترهات لا قيمة لها على أرض الواقع وأصبح الهدف نشر الذعر ورائحة الموت وترويع الناس.

وأصبح الكلام عن التراجع من أجل القيم الإنسانية النبيلة مجرد نظرية غبية كاذبة لا أساس لها بين طرفي المواجهة، وكنا على قناعة بأن الحرب قائمة لا محالة، فعلى

الرغم من أن إزاحة الرئيس العراقي عن كرسيه يريح بال الكثيرون إلا أن الطريقة لم تكن مناسبة.

كان من الممكن أن نتجنب كل تلك الخسائر، ولو منحنا قليلاً من الحكمة لعقولنا لأدركنا مدى ما ستتركه هذه الحرب من خسائر ومواجع وآهات وحرائق وقتلى وأرامل ومشردين...

كان من الأفضل لو تركنا بالفعل مساحة ولو قليلة لنراجع أنفسنا، فتلك الحرب اللعينة بمواجعها ومآسيها هي حتماً حرب غير متكافئة.. وستكون ويلاتها على العراقيين كبيراً.

وبين متاريس المواجهة هناك أصوات تعالت ترفض الموت.. وأخذت الأنفاس الحارقة تتعالى مع صيحات الغضب والاستنكار لمؤيدي الرئيس العراقي صدام حسين الذين كانوا يحاولون أن يظهروا مساوئ التاريخ القديم للأمريكيين بالاستدلال أن الأفارقة والهنود الحمر لم يكونوا متوحشين كما نشاهد في الأفلام الأمريكية التي تروجها هوليوود، ولم تكن حضارتهم بربرية كما عبروا عنها في هذه الأفلام، إنما البربرية صفة الذين تعالوا على البشرية على أنهم القوة العظمى في هذا الكون وسحقوا بأقدامهم معاني الإنسانية الصادقة.

فالشعب العراقي لا يستحق مؤامرت الموت التي باتت تحيط به يومياً واشترك فيها الجميع عرباً وأجانب شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً، إنها مؤامرة كبرى وفي النهاية العراقيين وحدهم من سيدفع الثمن. ما أكثر ما يحمله العالم اليوم من رذائل وشرورة، جعلونا نعيش وسط هذا الصراع البدائي واقتحموا حياتنا البسيطة بالحديد والنار تماماً كما فعلوا يوم رفضنا وجودهم على أرضنا من قبل.

هم عاجزون بالوقوف أمام حضارة عمرها أكثر من ستة آلاف سنة استطاعت أن تواجه الظلم لوحدها وتحارب المستعمرين وتزلزل حصونهم وترغمهم على التسليم بمطالبهم. حقيقة إنها معجزة لم تحققها الحراب والنبال من قبل ولم تحققها صواريخ كروز وتوماهوك والتكنولوجيا الأمريكية المتطورة اليوم... فلكي تصبح حضارة أي مجتمع من المجتمعات الدولية متفوقة ونبيلة وشريفة يجب عليها أن تؤمن بأن العلم

لوحده لا يمكن أن يبني تلك الحضارة وستبقى ناقصة إلا أن تدمج بالأخلاق، فأساس الحضارات العريقة هي الأخلاق وهذا ما يفسر أسباب سقوط الأمم سريعاً.

لقد أصبح الليل شديد الظلمة، ولا زلتُ أفكر ماذا سيحصل لو كانت بالفعل هذه هي الليلة التي ستنشب فيها المعركة، شعرتُ حينها بطفولتي تنهض من تحت ركام ستة وثلاثين عاماً... شعرتُ بكل براءتها ومرحها.. لا افتعال.. لا تمثيل...

شعرتُ أن هناك شيئاً يهزني من الأعماق، وخوف من المجهول.. وأتساءل كم ستهشم تلك القنابل والصواريخ من وجوه جميلة، وتقلع قلوباً بريئة من صدور ناس آمنين؟

كم من الناس سيموتون بلا سبب؟ وأخذت أقهقه في مرح وكأن الجنون مرَّ بي... مرحباً... فمن حسن الحظ أن أحداً لا يستطيع أن يقرأ ما يدور في خلدي في تلك اللحظات الساخنة المرعبة وإلا أغمي عليه من الرعب.. كل ما أشعر به الآن.. أن هناك حرباً شرسة سيشنها جنود محترفون على مدينتي الغافية، سيروّعون أهلي وعائلتي وأصدقائي وأحبائي وجيراني.. وكل من أعرفهم ولا أعرفهم..

فبعد هذه السنين الطويلة التي عشتها في وطني أشعر أن الغرباء الذين لا أعرف ملامح وجوههم سيحاولون أن يلقوا بالناس في نيران أسلحتهم الفتاكة.

كم تمنيت أن أستلقي لأنام.. بعد مشوار ثقيل...

الناس مهمومون.. شاحبون، كانوا قبل ساعات يسيرون بخطى ثقيلة في شوارع بغداد.. يخفون بين جفونهم معاني العذاب والألم ويتعثرون بالقلق الذي أخذ يحبس أنفاسهم مع دقات القلوب المتسارعة.. لماذا كُتب علينا أن لا نعرف طعماً للسعادة والمرح في بلدنا، وعندنا كل أدوات المرح والرقص وسبل السعادة الغامرة؟

عندنا أموال كثيرة وخيرات كثيرة وأغانينا حزينة، نملك النفط ووجوهنا شاحبة وقلوبنا مريضة.

لماذا أرواحنا متعبة؟ لماذا نشعر بأننا مذنبون؟

لماذا أصبح الحزن والبكاء والذل قوتنا اليومي؟

لماذا لا نعيش كبشر أقوياء قادرين على الإبداع؟

لماذا نملك كل تلك الخيرات والنعم وصعب على مريضنا شراء زجاجة الدواء؟

لماذا أثقل الفقر كاهلنا وقوس ظهر آبائنا؟

لماذا ورثنا الهموم والمآسي والأحزان؟

لماذا أصبح الحق باطلاً؟

أهو الدين.. أم العلم أم الظلم، أم إرادة الله سبحانه وتعالى أم هي لعنة الغرور والتكبر؟

لماذا يحصل لنا كل هذا؟

حزانى.. مهمومون.. قلقون.. معذبون.. تائهون.. جائعون.. تعبون.. مشردون.. نبحث عن الخلاص.. عن المنقذ....

ونظرتُ إلى ساعتي.. كان الليل قد شارف على الواحدة صباحاً. رمقت ليل بغداد نظرة الوداع لأنه كان عليَّ أن أستعد...

مَنْ يدري ماذا سيحصل؟ ومن سيبقى؟ ومن سيرحل؟

كنت أشعر بأن الحرائق التي ستشعلها نيران القصف ستكون شديدة، ونظرت إلى السماء كانت غائمة تلبس وشاح الليل تسأل معي متى سيبدأون؟

obeikandl.com